نظرية الدولة والتطور العمراني عند ابن خلدون (1332–1406م)

يُعتبر عبد الرحمن بن خلدون مؤسس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، وتُعدّ نظريته في **"الدولة العمرانية"** و**"العصبية"** من أنضج الرؤى الفلسفية والسياسية في الفكر الإنساني. تناول ابن خلدون الدولة باعتبارها ظاهرة اجتماعية وسياسية حتمية تخضع لقوانين سننية وطبيعية تشبه دورة حياة الكائن الحي (الميلاد، النمو، الهرم، ثم الموت).

أولاً: الدعامتان الأساسيتان لقيام الدولة (العصبية والملك)

ترى النظرية الخلدونية أن قيام أي دولة واستقرارها يرتكز على ركنين رئيسيين لا غنى لأحدهما عن الآخر:

- **العصبية (التضامن الاجتماعي والقتالي):** هي الرابطة النفسية والاجتماعية التي تجمع أبناء العشيرة أو الجماعة، وتولد لديهم الشعور بالتضامن والدفاع المشترك. العصبية هي المحرك الأساسي والقوة المادية الكفيلة بنيل الغلبة وبناء السلطة.
- **الدور الديني في دعم العصبية:** يرى ابن خلدون أن الدعوة الدينية تُضاعف من قوة العصبية وتُزيل ما فيها من تحاسد والتنافس، مما يُمكّن الجماعات البدائية من إزالة الممالك العريضة.
- **الملك والشوكَة (السلطة):** الملك هو الغاية النائية للعصبية؛ فعندما تقوى الرابطة وتستتب الغلبة، يتحول الرؤساء من زعماء عشائر إلى ملوك يمارسون السلطة والحكم.

ثانياً: أطوار الدولة الخمسة (دورة حياة الدولة)

قسّم ابن خلدون العمر المفترض للدولة (الذي قدره بثلاثة أجيال تقريباً، أي ما يعادل 120 سنة) إلى خمسة أطوار متتابعة:

1. **طور الظفر والتمكين (التأسيس):** الاستيلاء على الملك بالاشتراك في المجد والاعتماد على قوة العصبية والتقشف والخشونة البدوية.
2. **طور الاستبداد والانفراد بالملك:** كبح أيدي العشيرة عن المشاركة في الحكم، والانفراد بالسلطة، واصطناع الحاشية والموالي والجند المرتزقة.
3. **طور الفراغ والدعة (الأوج والازدهار):** تحصيل ثمار الملك، الاهتمام بالعمران والتشييد، جباية الأموال، وتوفير الاستقرار والرخاء.

ثانياً (متابعة): الأطوار الختامية للدولة

- **4. طور القنوع والاستكانة (التقليد):** الخلود إلى المسالمة وقنوع الحاكم بما بناه أسلافه دون تجديد، وبداية انحسار العصبية وضياع الشجاعة بسبب الترف.
- **5. طور الإسراف والتلف (السقوط والهرم):** تبديد الأموال في الشهوات، ظلم الرعية، ارتفاع الضرائب، وانهيار الجند والعمران، حتى تجهز عليها عصبية جديدة قادمة من البادية.

ثالثاً: العوامل الاقتصادية والعمرانية في سقوط الدولة

ربط ابن خلدون بين المالية العامة، حجم الضرائب، واستقرار العمران والدولة:

- **العلاقة بين الجباية والعمران:** في بداية الدولة تكون الضرائب قليلة والجباية كثيرة لإنعاش النشاط الاقتصادي. ومع تقدم الدولة تزداد النفقات ويُفرض المزيد من الضرائب والمكوس، مما يثبط المنتجين ويؤدي للكساد.
- **الظلم مؤذن بخراب العمران:** يقرر قاعدته الشهيرة بأن الاعتداء على حقوق الناس وأموالهم يقطع دوافعهم عن العمل والإنتاج، فتسقط الدولة اقتصادياً وسياستها تبعاً لذلك.

رابعاً: تصنيف أشكال الحكم عند ابن خلدون

ميّز ابن خلدون بين ثلاثة أشكال رئيسية لنظم الحكم والسلطة:

- **1. الخلافة (الملك الديني):** الحكم بمقتضى الشريعة الإلهية لتأمين مصالح العباد في الدنيا والآخرة.
- **2. الملك السياسي (السياسة العقلية):** الحكم بمقتضى القوانين العقلية والتجارب البشرية لتنسيق مصالح الدنيا.
- **3. الملك الطبيعي:** الحكم القائم على القهر والغلبة وتلبية أهواء ومصالح الحاكم الفردية.

تلازم العوامل في نشوء الدولة وسقوطها عند ابن خلدون

المرحلة / العامل	وضع العصبية والعمران	الأثر السياسي والمالي
مرحلة النشوء	عصبية قوية، تقشف، وبساطة بدوية	عدل، ضرائب قليلة، جباية مرتفعة، ونمو اقتصادي.
مرحلة الاستقرار	بداية ضعف العصبية وتشييد العمران	تركيز السلطة، نمو الترف، واستقرار المؤسسات.
مرحلة الهرم	تفكك العصبية بالكامل والترف المفرط	ضرائب باهظة، ظلم، كساد اقتصادي، وسقوط وشيك.

خلاصة النظرية الخلدونية: *تتسم نظرة ابن خلدون بالواقعية والتفسير الاجتماعي المادي؛ فالدولة كائن حي يتطور وفق قوانين تاريخية محددة، ويحمل في مرحلة ازدهاره وتأنقه بذور فنائه وانقراضه.*